

تفسير البحر المحيط

@ 503 @ فكفروا وغَيِّروا ما كان يجب أن يكونوا عليه فغيرا تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحلَّ بهم عقوبته انتهى . وتغيير آل فرعون ومشركي مكة ومن يجري مجراهم بأن كانوا كفاراً ولم تكن لهم حالة مرضية فغيَّروا تلك الحالة المسخوطة إلى أسخط منها من تكذيب الرُّسل والمعاندة والتخريب وقتل الأنبياء والسعي في إبطال آيات الله فغير الله تعالى ما كان أنعم عليهم به وعاجلهم ولم يمهلهم وفي قول الزمخشري ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله تعالى لم ينبغ له ولم يصحَّ في حكمته أن يغير نعمه عند قوم حتى يغيَّروا ما بهم من الحال دسيسة الاعتزال وأن الله سميع لأقوال مكذِّبي الرسول ، عليم بأفعالهم فهو مجازيهم على ذلك . .

{ كَذَّبَ آبُءَ الْفِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُ الْفِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا طَائِفِينَ } قال قوم : هذا التكرير للتأكيد ، وقال ابن عطية : هذا التكرير لمعنى ليس للأوَّل أو الأوَّل أو الأوَّل دأب في أن هلكوا لما كفروا وهذا الثاني دأب في أن لم يغير نعمتهم حتى يغيَّروا ما بأنفسهم انتهى ، وقال قوم : كرِّر لوجوه منها أن الثاني جرى مجرى التفصيل للأول لأنَّ في ذلك ذكر إجرامهم وفي هذا ذكر إغراقهم وأُريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة حال الموت وبالثاني ما نزل بهم من العذاب في الآخرة وفي الأوَّل بآيات الله إشارة إلى إنكار دلائل الإلهية وفي الثاني بآيات ربهم إشارة إلى إنكار نعم من ربِّهم ودلائل تربيته وإحسانه علي كثرتها وتواليها وفي الأوَّل اللام منه الأخذ ، وفي الثاني اللام منه الهلاك والإغراق ، وقال الزمخشري في قوله تعالى : بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجود الحقَّ وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب ، وقال الكرمانى يحتمل أن يكون الضمير في الآية الأولى في كفروا عائداً على قريش وفي الأخيرة في كذَّبوا عائداً على آل فرعون والذين من قبلهم انتهى ، وقيل فأهلكناهم هم الذين أهلكوا يوم بدر فيلزم من هذا القول أن يكون كذَّبوا عائداً على كفار قريش ، وقال التبريزي فأهلكناهم قوم نوح بالطوفان وعادا بالريح وثمروداً بالصيحة وقوم لوط بالخسف ، وفرعون وآله بالغرق ، وقوم شعيب بالظلمة ، وقوم داود بالمشخ وأهلك قريشاً وغيرها بعضهم بالفرغ وبعضهم بالسيف وبعضهم بالعدسة كأبي لهب ، وبعضهم بالغدة كعامر بن الطَّفيل ، وبعضهم بالصاعقة كأبي قيس انتهى ، فيظهر من هذه الكلام أن الضمير في كذَّبوا وأهلكناهم عائداً على المشبه والمشبه به في كذاب إذ عمَّ الضمير القبيلتين وإنما خصَّ آل فرعون بالذكر وذكر الذي أهلكوا به وهو

إغراقهم لأنه انضم إلى كفرهم دعوى الإلهية والرّبوبية لغير الله تعالى فكان ذلك أشنع الكفر وأفظعه ومراعاة لفظ كلّ إذا حذف ما أضيف إليه ومعناه جائزة واختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل إذ لو كان التركيب وكلّ كان طالماً لم يقع فاصلة ، وقال الزمخشري وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا طالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي انتهى ، ولا يظهر تخصيص الزمخشري كلاّ بغرقى القبط وقتلى قريش إذ الضمير في كذبوا وفي فأهلكناهم لا يختصّ بهما فالذي يظهر عموم المشبه به وهم آل فرعو والذين من قبلهم أو عموم المشبّه والمشبّه بهم . .

{ إِنَّ شَرَّ الدِّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُوْؤُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ } . نزلت في بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدتهم الرسول أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا نسينا وأخطأنا ثم عاهدتهم فنكثوا مالمؤوا معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم قال البغوي من روى أنه كعب بن الأشرف أخطأ ووهم بل يحتمل أنه كعب بن أسد فإنه كان سيّد قريظة ، وقيل :